

العوامل التي أدت إلى سقوط الإمبراطورية البيزنطية - وماذا بإمكاننا أن نتعلم منها



لماذا تسقط الإمبراطوريات؟ سؤال حير الكثيرين، لكن في البحث عن الإجابة قد يسرح الخيال، انبثقت بعض الأطروحات في العقود الأخيرة التي تنسب صعود وسقوط الإمبراطوريات القديمة مثل الإمبراطورية الرومانية إلى تغير المناخ (1) وانتشار الأمراض (مثل، طاعون جستنيان (2، 3)). وقد أثار هذا السؤال جدلاً حول ما إذا كان عام "536 الميلادي أسوأ عام عُرف."

في ذلك العام، تسبب ثوران بركاني في انتشار سحابة كثيفة من الرماد البركاني (4) حجبت أشعة الشمس في مناطق معينة من العالم. وزُعم إن هذا الثوران، بالإضافة إلى سلسلة من ثورات بركانية أخرى حدثت في العقد التالي للثوران البركاني الأول، قد تسببت في انخفاض درجة الحرارة العالمية (5) بين عامي 541 و544 ميلادية. كان هناك أيضًا أول وأخطر حدث موثق لطاعون جستنيان (3، 6) في الإمبراطورية الرومانية الشرقية (تُعرف أيضًا باسم الإمبراطورية البيزنطية)، حيث مات ملايين البشر.

تفيد الدراسات (7) بأنه لا يوجد دليل نصي على تأثيرات سحابة الرماد البركاني في شرق البحر الأبيض المتوسط، وهناك نقاش مستفيض (8) حول انتشار طاعون جستنيان وطول مدته. ولكن بالرغم من ذلك، لا يزال هناك كثيرون في الأوساط الأكاديمية يزعمون أن التغيرات في المناخ وتفشي الطاعون كانت تغيرات كارثية بالنسبة للإمبراطورية البيزنطية.

دراستنا (9)، التي نُشرت في نوفمبر 2024، أثبتت أن هذه الادعاءات غير صحيحة. فهي استُخلصت من اكتشافات معزولة ودراسات حالة صغيرة والتي تم إسقاطها على حالة الإمبراطورية الرومانية بأكملها آنذاك.

استخدام مجموعات بيانات كبيرة من مناطق شاسعة كانت تحكمها الإمبراطورية الرومانية سابقًا أفادنا بسيناريوهات مختلفة عن السيناريوهات الأولى تلك. تكشف النتائج التي توصلنا إليها أنه لم يُسجل هناك حدث انخفاض أو انهيار في القرن السادس الميلادي، بل ما سجل كان رقمًا قياسيًّا جديدًا في سجل السكان والتجارة في شرق البحر الأبيض المتوسط.



وصلت الإمبراطورية الرومانية الشرقية إلى أقصى حدود لها في القرن السادس. يمثل اللون الأرجواني الفاتح مكاسبها العسكرية بين أعوام 533 و565 ميلادي، وهي الفترة التي من المفترض أن تكون الإمبراطورية قد انهارت بسبب تغير المناخ والطاعون. المصدر سيمون نيتشيف / موسوعة تاريخ العالم

استخدمنا كلا من البيانات الصغرى micro والبيانات الكبرى macro (الكلية) من مختلف البلدان والمناطق. تضمنت البيانات الصغرى دراسة مناطق صغيرة وإثبات متى حدث الإنهيار في تلك المنطقة أو ذلك الموقع. دراسات الحالة، مثل موقع مدينة إلسا القديمة في صحراء النقب الشمالية الغربية أعيدت دراستها.

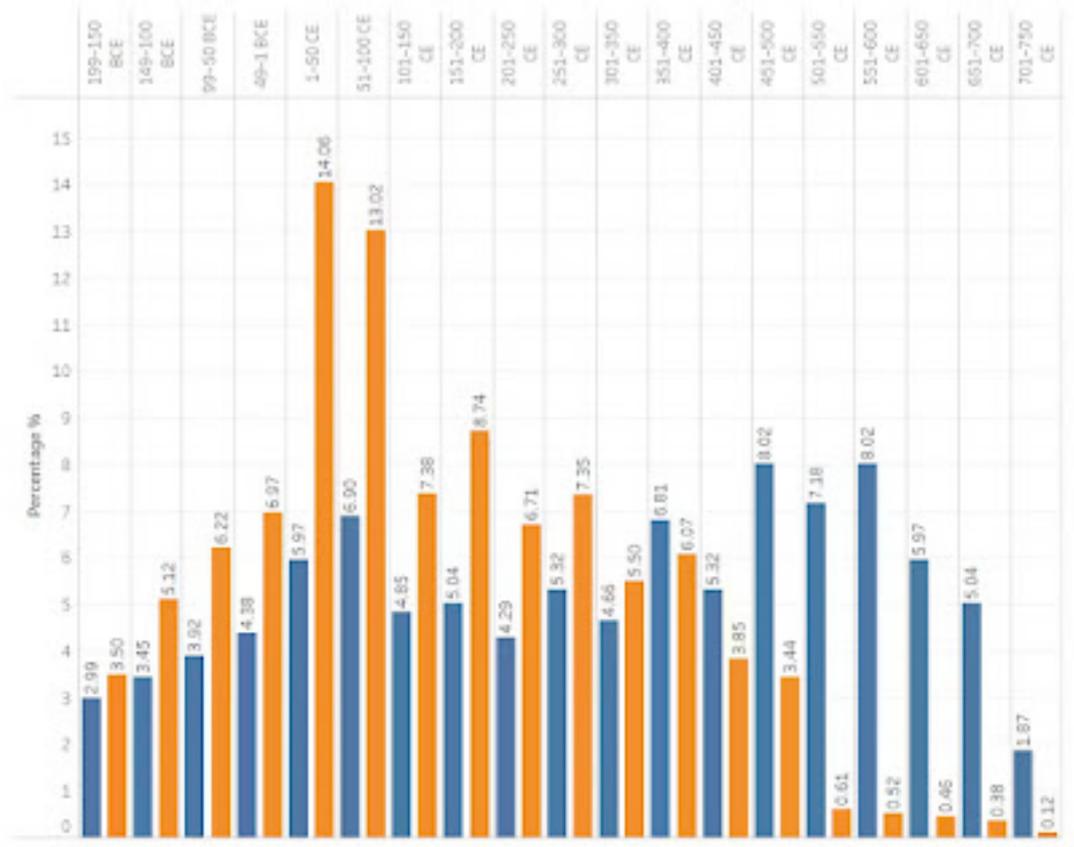
زعمت الأبحاث السابقة أن هذا الموقع من الإمبراطورية انهيار في منتصف القرن السادس الميلادي. لكن إعادة تحليل الكربون 14، وهو تحليل يهدف إلى التحقق من تزامن أو معرفة عمر شيء معمول من مادة عضوية (10)، وبيانات السيراميك (11) المستخدمة لتزامن الموقع، أن هذا الاستنتاج غير صحيح، وإنما بدأ الانهيار فقط في القرن السابع.

وتضمنت البيانات الكبيرة قواعد بيانات جديدة جُمعت باستخدام المسح الأثري (المسح الميداني) (12) والحفريات لاكتشاف مواقع أثرية (13) وحطام سفن (14). واستخدمت قواعد بيانات المسح الميداني وبيانات الحفريات في المواقع

الأثرية، والتي شملت عشرات آلاف المواقع، وذلك لتتبع التغيرات العامة في حجم وعدد المواقع لكل فترة تاريخية.

قاعدة بيانات حطام السفن شملت عدد السفن المحطمة لكل نصف قرن (انظر الشكل أدناه). استخدمت هذه البيانات لتسليط الضوء على التحول في حجم التجارة البحرية.

التغيرات في التجارة البحرية (من عام 150 إلى 750 ميلادي)



رسم بياني يقارن النسبة المئوية لحطام السفن في كل نصف قرن، من إجمالي عدد السفن المحطمة في نصف البحر الأبيض المتوسط، وفقاً لقواعد بيانات هارفارد ومراجعة أكسفورد للسياسات الاقتصادية OXREP يمثل اللون البرتقالي غرب البحر الأبيض المتوسط، بينما يمثل اللون الأزرق شرق البحر الأبيض المتوسط. المصدر: ليف كوسينز أولشا نيتسكي وحاغي Lev Cosijns

بينت النتائج التي توصلنا إليها أن هناك تلازماً كبيراً في السجل الأثري للكثير من المناطق الأثرية، بما في ذلك بلاد الشام (فلسطين والأردن) وتونس وقبرص وتركيا ومصر واليونان الحديثة. وكان هناك أيضاً تلازم قوي بين الأنواع المختلفة من البيانات.

أظهرت كل من دراسات الحالة الصغيرة ومجموعات البيانات الكبيرة أنه لم يكن هناك انخفاض في عدد السكان أو الاقتصاد في الإمبراطورية الرومانية البيزنطية في القرن السادس. بل في الواقع، يبدو أن هناك زيادة في الرخاء وعدد السكان. الانهيار حدث في القرن السابع، وبالتالي لا يمكن ربطه بتغير مفاجئ في المناخ أو عزوه إلى انتشار الطاعون الذي حدث قبل أكثر من نصف قرن من ذلك.

يبدو أن الإمبراطورية الرومانية دخلت القرن السابع وهي في ذروة قوتها. لكن الحسابات الرومانية الخاطئة، وفشلهم ضد خصومهم الفرس، أدخلت المنطقة بأكملها في دوامة من الانهيارات. وهذا ترك الإمبراطوريتين (البيزنطية والفارسية) ضعيفتين وسمح للإسلام بالصعود والانتشار.

وهذا لا يعني أنه لم يكن هناك تغير في المناخ خلال هذه الفترة في بعض مناطق العالم. على سبيل المثال، كان هناك تغير واضح في الثقافة المادية [العلاقة بين الأعمال الفنية والعلاقات الاجتماعية] وتعتبر دراسة علاقة الثقافة بالواقع المادي هي العدسة التي يمكن من خلالها مناقشة الاتجاهات الاجتماعية والثقافية] (15)، (16) وانهيار عام وهجر للمواقع في جميع أنحاء الدول الاسكندنافية في منتصف القرن السادس الميلادي (17)، حيث كان هذا التغيير في المناخ أكثر اتساعًا.

وأزمة المناخ اليوم في طريقها لإحداث تغييرات أعظم كثيرًا من تلك التي شهدناها في الماضي. التحول المفاجيء في التقلبات البيئية التاريخية (18) لها القدرة على تغيير العالم تغييرًا لا رجعة فيه كما نعرف.